

## من قلعة الرخام إلى قلعة اللغة محمود درويش يحاول إحراق أساطيره

يبدو محمود درويش في ديوانه الأخير «هي أغنية هي أغنية» متشحا بندم ملىء بالفوضى والصراخ. لقد اكتملت أساطيره التي بناها من الاستعارات الفذة والجدل المفعم بالحيوية في ديوانه «حصار لمدائح البحر» وكان لا يزال يحس صلابة الأحجار رغم فوران الزلازل تحتها وكانت بيروت بكل أهوالها «نرجسة الرخام» تمر بتحولاتها المروعة ولكنه في ديوانه الأخير يرى نفسه وشعبه في نزل على البحر يرى نفسه ضيفا يعتذر عن إقامته القصيرة إنه يريد بعد الخروج من بيروت أن يلتقط كالتائر فوق البحر بعض الحياة.

ونريد أن نحيا قليلا لا لشيء

بل لنرحل من جديد

ويبدأ الندم بشيء من الاحساس بالذنب «لا تعطنا يا بحر ما لا نستحق من النشيد» وهو يعلن في صدر ديوانه عن خروج نهائي فلا صيغة تحمل من الإلحاح ما يؤكد نفاذ الصبر والسخرية والوصول إلى دائرة العبث.

سنخرج، قلنا سنخرج

فلتتركوا حيزا للوداع الأخير سلام علينا، سلام علينا.

سنجمع أعضائنا في الحقائق فلتوقفوا القصف خمس دقائق

إن هذه القصيدة «سنخرج» هي افتتاحية مثيرة بقدر ما تحمل من الحسم والمراوغة من التسليم والمقاومة، من الجدل الذى يقفز بين النقائض بحثا عن ساحل أو شكل للأرض فى تيه من بحار تغلى بمرحلة ما قبل الخليقة، وهى افتتاحية يعلن فيها الشاعر الانتقال من الجسد إلى الظل ومن الحجر إلى اللغة ومن الأرض إلى الهواء، وإن كان يوهمنا فى نهاية القصيدة بجذلية التحول أن لحظة الخروج هى لحظة الدخول أيضا.

وكنا على رقعة البر ساعة حائط

ويوم قرنفل

وداعا لمن سوف يأتون من وقتنا صامتين

ومن دمنا واقفين لندخل

سنخرج

قلنا سنخرج حين سندخل

يستمد محمود درويش براعته الشعرية من إتقانه للاستعارة بل إنه تجاوز بها الحدود القصوى إلى حد أنه أصبح يتعامل مع الاستعارة باعتبارها هى الحقيقة وهنا صك درويش أسطوره اللغوية ويبدو أنه كان طوال الوقت يشعر بخداع الواقع من حوله. الزلازل النكسات التراجعات الفجائع التى لا تنتهى. كان يعرف صيرورة الواقع الأبدية وخيانة هذا الواقع المستمر لحلم الشاعر لهذا كان إلحاحه على تجسيد هذا الحلم فى «أغنية» لقد أحس درويش معظم الوقت أن المناسبة تحاصره وأنه يحيا شعريا فى المؤقت ولذا عليه أن يتجاوز الواقع إلى خلود الأغنية وانهمرت أشعاره خاصة بهذ الكرنفالات الحاشدة بالبشر المنحدرين من التاريخ

مرة ومن الحقول مرة أخرى. حفل شعره بالجثث والمهرجين والشهداء ورجال البنوك وعكست الصورة الشعرية كل هذا فى مزيج مدهش من الحسى المباشر الخطابى أحيانا والذى يصيب بالدهشة والإثارة كل من يقرأه وبين المعنوى المشتق من الأساطير والديانات والميتافيزيقا والأحلام لقد صهر أدونيس فى أحشائه العامرة بالتجارب المأساوية وأحال تجربته الشعرية إلى نموذج جديد من الكائنات الشعرية التى تقترب من عوالم سلفادور دالى مرة واكتئاب أبى العلاء المعرى مرة أخرى. فى ديوانه الأخير «هى أغنية» يبدو محمود درويش وكأنه فى حاجة إلى أن يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب جماهيره، إنه فى البحر والهواء فى طريقه إلى مجهول غامض تحمله طائرات تحط لتقلع ورأى محمود درويش أن حصاد الرحلة كان مجرد أغنية. مجرد حلم. إن كل الفجائع التى يمر بها تدخل إلى المرحلة اللغوية من المبنى إلى المعنى من المكان إلى الزمان يقول:

منذ الصعود إلى الهبوط إلى محاولة الصعود على

الصدى. هى أغنية،

سيوزع النسيان أعشابا على جدرانها وسنستعيد

أيام إخوتنا وتاريخ انبجاس الماء من حجر فكم سنة

سنبقى

فى قاع هاوية نعلم روحنا قداسها وجناسها

لم يصعد الشاعر طوال هذه المرحلة إذن على جناح الفعل الثورى بل

كان يهبط إلى هاوية الأغنية هنا ينبثق ندم عاصف:

صدقت أغنيتى وكذبت الخريف وليتبنى كذبت أغنيتى وصدقت

الخريف..

ثم يواصل التهكم على الشعر:

هل نستطيع العيش أكثر ما استطعنا كي نرى

ذهب الكلام

خبزا وفاكهة؟ «أسأت إليك يا شعبي» أسأت كما

أساء الحب لي

وأصبت طفلا بالأغاني حين قدست المعاني وحدها

وتركت سكان القصيدة في مخيمهم يعدون الهواء

على الأصابع

والشاعر يتمادى في هذا الإحساس المفعم بالندم حتى ليتساءل آن  
للشاعر أن يقتل نفسه وهو يفتتح القصيدة كما لو كان هذا الفعل الذي  
يراوده إنما هو نوع من أفعال العبث فيقول:

آن للشاعر أن يقتل نفسه

لا لشيء بل لكي يقتل نفسه

هل هي السخرية المرة من الواقع وما يقع فيه أم الإحساس بالخواء  
بحيث لم يعد لفعل القتل من مبرر لأن سقوط الأشياء أسقط معه كل  
المبررات. فليس القتل بطولة أو استشهادا لأن هذه المعاني قد انسحبت  
من المجال الواقعي لرؤية الشاعر ولكنه يدرك على الفور أن هذا المطلع  
ليس إلا تبسيطا مخلا بحدود الفاجعة، فيفسر لنا أن قتل الشاعر نفسه  
ليس فعلا عبثيا بل هو رد على العبث حين يقول:

من ثلاثين شتاء

يكتب الشعر ويبنى عالما ينهار حوله  
يجمع الأشلاء كي يرسم صفورا وبابا للفضاء  
كلما انهار جدار حولنا شاد بيوتا فى اللغة  
كلما ضاق بنا البر بنى الجنة وامتد بجُمله  
من ثلاثين شتاء وهو يحيا خارجى

وإذا تأملنا عناوين ديوان «هى أغنية هى أغنية» لمحمود درويش سنرى ظل التراجع والندم والسخرية وكأن الشاعر على وشك إحراق الأساطير التى أتعب نفسه لكى يخلقها طوال كدحه كشاعر. تقول العناوين «سنخرج» «غبار القوافل» «هذا خريفى كله» «فى آخر الأشياء» «محاولة انتحار» «آن للشاعر أن يقتل نفسه» «يكتب الراوى يموت». وإذا كان الندم يأخذ طابعا شبه عدمى فى بعض القصائد فهو فى قصيدته «أسميك نرجسة حول قلبى» التى يهديها إلى رفيقه الشاعر سميح القاسم يضىء ندمه بوعى يطوف حول الجذور. ندم على الخروج من الوطن إلى هواء العالم الخانق يقول درويش مفسرا حادثة الخروج:

دوائر حول الدوائر دعنى أفسر لك الحادثة  
حلمت. كما كنت تحلم. أن حزيران أقسى الشهور  
«وواضح الإشارة إلى حزيران ١٩٦٧».  
وأن الكلام الذى يتكرر فىنا لكى نتبعه هو الكارثة  
حلمت كما كنت تحلم أن البحيرات زرقاء خلف يدي  
وخلف يديك

وأن الطريق المعاكس أقرب منى إلى وأقرب منك إليك  
وأن لحرיתי رمز تموز والزوبعة  
حلمت فطرت لأدخل ثانية في الجذور  
وغبت لأحضر كل هدايا اللغة إليك  
وكدت أعود قبيل انبثاق الفراق  
ولكن حادثة الوهم تمت وتم احتراق البراق  
على شارع عج بالحالمين  
وبالرحلة الثالثة.

هذا الديوان يدخل بنا عصب الفاجعة حيث يتراجع صوت الشاعر  
إلى قوقعة النفس يحاسبها ويتأمل آخر الأشياء.

ثمر على وشك السقوط عن الشجر  
تلك النهاية والبدائية أو كلام للسفر

ولأن الرؤية تميل في هذا الديوان إلى الالتفاف حول الذات فهي  
تنعكس تعبيرياً في هذا التمدد الكمي في البناء حيث يكثر التكرار  
والاستطراد ويبدو الشاعر متكلفاً في بعض الصور وكأنه يصنعها بذهنه  
خاصة عندما يحاول ترجمة أفكاره عن الواقع وبدلاً من الخطابية التي  
كانت تجلجل في عروق قصائده الأخرى تميل الغنائية إلى قدر من  
الشحوب، فالعزف منفرد.

بحر أمامي والجدران ترجمني  
دع عنك نفسك واسلم أيها الولد  
البحر أصغر منى كيف يحملني

والبحر أكبر منى كيف أحمله  
ضاقت به اللغة استسلمت للسفن  
وغص بالقلب حين امتصه الزبد  
بحر على وفي الأبيض - الأبد  
والعزف منفرد

أصبح الإيقاع أقرب إلى غناء المهد لأن العزف أصبح منفردا. إن  
محمود درويش الذى يحاول فى هذا الديوان إحراق أساطيره إنما يبني  
أسطورة جديدة من أشلاء أساطيره القديمة وبهذا يظل طائر الفنيق متأهبا  
للولادة فى كل ديوان من دواوينه.

